

ليست هي المرأة المسموعة هنا ولكنها هي الطبيعة.
والمرأة والرجل والحكماء والحكمة ألعوبة الطبيعة التي لا تسأم اللعب، ولا تعرف
الجد لأنها لا تعرف التعب، وربما كانت المرأة أضعف هذه الألعيب كما يكون الطعم
أضعف من السمكة التي تأكله، وإن كان الطعم ليقودن السمكة إلى الهلاك.
ومن القاضي الفاصل بين الطبيعة والحكمة؟ إنما القضاء لمن ينتظر منهما الحجة
الأخيرة والنتيجة الخاتمة.

ولكن ليس للطبيعة انتهاء.

فهي في جميع الأزمان صاحبة القول الأخير.

في ملحمة الصراع بين الفتنة والحجى ينسى الإنسان ما لا يُنسى، ويخطر له الإغضاء
عما يشهده بعينه ويثبت ببرهانه، ولقد خطر هذا لهمام في تلك اللحظة ووسوس له
الهوى أن ينزل بتلك المرأة الماثلة أمامه إلى حيث ينسى خيانتها ولا يذكر إلا متعتها، فتمنى
في تلك اللحظة أمنية غريبة، تمنى لو كان حبه لها أملاً، وماضيه معها أقصر، وشرطه
عليها أقرب وأيسر، إذن لاكتفي منها بما تعطيه، واستبقاها على شرطها ومرامها لا على
شرطه ومرامه.

إن الرجل الذي يهب للمرأة ساعة من يومه يكتفي منها بساعة من يومها، ولكن هل
يكتفي منها بتلك الساعة وهو يهب لها ساعاته وأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره،
ويحجب بيديه ضياء المستقبل الذي يطلع عليهما مفترقين كأنه يطمع من الدنيا في غرام
بغير فراق؟

إن الابن لن يكون ابناً أو نصف ابن، وإن التحفة النفيسة لن تكون صحيحة أو
نصف زائفة، فهي إما صنعة الفنان المنسوبة إليه والفترة المردودة إليها أو هي ليست
بصنعة على الإطلاق.

فلا تقرب ولا توسط في هذه الأمور.

وهذه المرأة، بل هذا العالم الحاشد من النساء؛ لأن كل لحظة من لحظاته معها تمده
بنسخة منها قلما تختلط بأخواتها، هذه المرأة التي لا امرأة غيرها كيف يرضاها ولديها
رجل غيره في إبان هواها؟

ليست الحكمة هي التي تتكلم هنا ولكنها هي الطبيعة، ومن ذا يقاوم الطبيعة في
غوايتها غير الطبيعة في ثورتها؟ إن الصراع هنا لبين ندين متكافئين، والويل للفريسة
المطرودة بين الندين.